حوليات آداب عين شمس المجلد ٥٠ (عدد إبريل – يونيو ٢٠٢٢)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

نظام العزابة عند إباضية وارجلان في عصر الخلافة الفاطمية بالمغرب (٢٩٧ – ٣٦٢هـ)

سلمى محمود إسماعيل*

أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي- بكلية الآداب – جامعة المنصورة
Salma_mahmoud@yahoo.com

المستخلص:

معلوم أن نظام العزابة أبدعه إباضية بلاد المغرب بعد سقوط الدولة الرستمية علي يد الداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٦هـ وفي العام التالي نصب الإمام الإسماعيلي عبيد الله المهدي أول خليفة للدولة الفاطمية في مدينة رقاده. وعلي أثر سقوط الدولة الرستمية وتعرض إباضيتها للاضطهاد نزح معظمهم إلي جبل نفوسة وجزيرة جربة وواحة وارجلان في جوف الصحراء الكبري. في جبل نفوسة حاول إباضيتها إحياء الإمامة الرستمية، لكن جهودهم باءت بالفشل نتيجة تهديدات الخليفة المهدي الفاطمي. وفي جزيرة جرة – وكان إباضيتها علي مذهب النفاثية – نجحوا في إقامة نظام العزابة كبديل لنظام الإمامة، بالمثل أقام إباضية واحة وارجلان – وكان معظمهم علي مذهب الوهبية – نظام العزابة الذي كان أكثر تنظيماً وأكبر تأثيراً من عزابات جبل نفوسية وجزيرة جربة.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢٢.

معلوم أن نظام العزابة أبدعه إباضية بلاد المغرب بعد سقوط الدولة الرستمية على يد الداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٦هـ. وفي العام التالي نصب الإمام الإسماعيلي عبيد الله المهدي أول خليفة للدولة الفاطمية في مدينة رقاده. وعلى إثر سقوط الدولة الرستمية وتعرض إباضيتها للاضطهاد، نزح معظمهم إلى جبل نفوسة وجزيرة جربة وواحة وارجلان في جوف الصحراء الكبرى. في جبل نفوسة؛ حاول إباضيتها إحياء الإمامة الرستمية؛ لكن جهودهم باءت بالفشل نتيجة تهديدات الخليفة المهدي الفاطمي. وفي جزيرة جربة – وكان إباضيتها على مذهب النفاثية – نجحوا في إقامة نظام العزابة كبديل لنظام الإمامة؛ وهو ما سنعرف به فيما بعد. بالمثل أقام إباضية واحة وارجلان – وكان معظمهم على مذهب الوهبية – نظام العزابة الذي كان أكثر تنظيما وأكبر تأثيرا من عزابات جبل نفوسة وجزيرة جربة، وهو ما سنعرض له بالتفصيل؛ باعتباره موضوع هذه الدراسة. وننوه – بدءا – أنه كان مستوحى من معتقدات المذهب الإباضي – بعد تطوير فقهه – ومن تجربة الدولة الرستمية؛ خصوصا فيما يتعلق بنظمها؛ فضلا عن معطيات واقع المحنة التي عاشتها كافة فرق الإباضية في ظل حكم الخلفاء الفاطميين الأوائل.

أما عن سبب اختيار نظام العزابة في واحة وارجلان موضوعا للدراسة؛ فيرجع إلى أن مثيله في جبل نفوسة كتب عنه الكثير من لدن المستشرقين والدارسين العرب والمحدثين[١]. أما عن عزابة جزيرة جربة؛ فقد كتب عنها مؤرخ إباضي معاصر كتابا ضخما في نحو ٣٨٠ صفحة[٢]؛ إستعرض فيه تاريخها منذ قيامها؛ حتى الوقت الحاضر.

أما عن عزابية وارجلان؛ فلم تحظ إلا بنحو خمس صفحات من لدن الدارسين المحدثين[٣].

تقتضي الضرورة المنهجية لمعالجة موضوع الدراسة أن نعرف – في إيجاز – بفكر الإباضية السياسي، لا لشيء إلا أنه سيتطور عن طريق الاجتهاد ليواكب ويشرع لنظام العزابة الجديد. كما يقتضي أيضا أن نقف على معطيات تجربة الدولة الرستمية التي أفاد منها مؤسسو نظام العزابة. وتقتضي الضرورة المنهجية أيضا التعريف بواحة وارجلان التي شهدت ميلاد نظام العزابة في صورة أكثر نضجا وأعظم تأثيرا من عزابيات جبل نفوسة، وجزيرة جربة.

معلوم أن المذهب الإباضي ينسب إلى مؤسسه عبد الله بن إباض التميمي الذي خالف فرق الخوارج الأخرى في مسألة "القعدة" – أي الذين تخلفوا عن المشاركة في الحروب ضد بني أمية – حيث رفض ابن إباض تكفيرهم على العكس من بقية فرق الخوارج الأخرى[٤]. وإن شاركها في القول بأن الإمامة ليست حكرا على قريش، كما يذهب أهل السنة، ولا يختص بها آل البيت عند الشيعة؛ بل هي حق متاح لكل مسلم؛ بغض النظر عن نسبه ولونه. كما شاركتها في مبدأ وجوب الثورة على الجائرين من الحكام[٥].

تميز المذهب الإباضي أيضا؛ بعدم تكفير مرتكب الكبيرة، واستباحة دمه، واستحلال ماله وذراريه[٦]. وإن ذهب بعض الفقهاء الإباضية إلى أن كفره "كفر نعمة، وليس كفر ملة".

إنطلاقا من اعتبار خلفاء بني أمية جائرين مغتصبين للخلافة؛ قام عبد الله بن إباض بثورة ضد الخليفة عبد الملك بن مروان، لكنه هزم وقتل في معركة "تبالة" باليمن[٧].

عول الإباضية على نهج الدعوة السرية؛ بهدف كسب الأنصار والأعوان وإعدادهم للثورة مرة أخرى، وذلك برئاسة جابر بن زيد الذي أقام مركزا سريا للدعوة في البصرة[٨]. ومنه أرسل خلفه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة الدعاة إلى خراسان واليمن وبلاد المغرب. ما يعنينا أن داعيته في المغرب – ويدعى سلمة بن سعيد –[٩] نجح في نشر المذهب الإباضي في بلاد المغرب الأدنى والأوسط[١٠]؛ بين قبائل نفوسة وهوارة وزناتة ولماية وسدراتة ووارجلان[١١]. وبعد إعدادها مذهبيا وعسكريا، قام الإباضية بعدة ثورات أسفرت عن استيلائهم على المغرب الأدنى وإفريقية؛ فضلا عن نفوذهم في بعض أقاليم المغرب الأوسط. على إثر ذلك أنفذ العباسيون حملة إلى المغرب هزمت الإباضية في معركة "تاورغا"؛ فنزح الإباضية إلى المغرب الأوسط، وتمكنوا من تأسيس الدولة الرستمية سنة ١٦٢هـ بإمامة عبد الرحمن بن رستم الفارسي الذي أعاد بناء مدينة "تاهرت"، واتخذها عاصمة للدولة[١٢]. وقد أفاد من خبرة الفرس في مجال النظم والإدارة في إرساء قواعد الحكم؛ بعد إعطائها طابع المذهب الإباضي. واتسم حكمه بالعدالة؛ "فلم ينقم عليه أحد في خصومة ولا حكومة"[١٣].

تولى الإمامة ابنه عبد الوهاب؛ بعد وفاته، واستن سياسيات تخالف مبادئ المذهب؛ فاندلعت عدة ثورات، أهمها ثورة النكار بزعامة ابن فندين الذي هاله تحول الحكم في تاهرت إلى الملك الوراثي؛ فضلا عن عدم التزام عبد الوهاب بمبدأ الشورى. ناهيك عن تجاوزه مبدأ العدالة؛ فانحاز إلى بعض العناصر والقبائل على حساب الأخرى[١٤].

تمكن عبد الوهاب من هزيمة النكار؛ وأفضى الحال إلى انقسام الإباضية إلى مذهبين: مذهب الوهبية الموالي للإمام، ومذهب النكار الذي ينحاز لابن فندين[١٥].

حدث انشقاق آخر في المذهب الإباضي عرف أنصاره "بالنفاثية" – كناية عن نفسهم السموم تشكيكا في سياسة الإمام عبد الوهاب – إذ تزعمهم فقيه إباضي مرموق عرف باسم فرج بن نصر؛ اعترض على سياسته في تعيين أتباعه الوظائف العليا في

الدولة؛ ناصحا له بأن يكون الاختيار من الرعية[١٦]. وإذ لم يستجب اندلعت ثورة النفاثية؛ لكنها قمعت بعنف وقسوة؛ فهرب قائدها إلى الشرق، ولاذ الثوار بجزيرة جربة.

وقد فصلنا – إلى حد ما – بصدد هاتين الثورتين؛ لا لشيء إلا لأثر كل منهما في ظهور نظام العزابة؛ موضوع الدراسة.

قامت انتفاضات أخرى في عهد إمامة عبد الوهاب؛ بعضها ذات طابع مذهبي؛ مثل انتفاضة "السمحية"، وثورة المعتزلة، والبعض الآخر ذات طابع قبلي؛ مثل تمرد هوارة؛ التي قمعها عبد الوهاب بقسوة وضراوة.

حاول خلفه أفلح بن عبد الوهاب اتباع سياسة والده؛ فلم يفلح؛ فاضطر للعودة إلى سياسة جده عبد الرحمن متبعا تعاليم المذهب؛ فأرضى شيوخ الإباضية وشيوخ المذاهب الأخرى غير الإباضية. واتبع سياسة الدهاء والحيلة؛ ففرق بين القبائل وحال دون اجتماعها ضده. لذلك اتسم عهده بالهدوء والاستقرار[١٧]. وهنا ينتهي الطور الأول في تاريخ دولة بني رستم.

إلا أن الأئمة من بعده – أبو حاتم يوسف وأبو اليقظان بن محمد – واجهوا صراعا قبليا مريرا؛ أشبه ما يكون بالحرب الأهلية. إلا أن أبا اليقظان عاد إلى سياسة جده الأول عبد الرحمن بن رستم؛ فعاد السلام والوئام بعد أن أسس مجلسا للشورى كان أعضاؤه من شيوخ المذهب الإباضي وزعماء القبائل[١٨]. وبذلك ينتهي الطور الثاني في تاريخ بني رستم.

أما الطور الثالث والأخير؛ فقد عمته الفوضى، حيث تمكن أحد زعماء القبائل من الاستيلاء على السلطة؛ لكن العامة ثاروا ضده وعزلوه وولوا اليقظان بن أبي اليقظان. لكنه كان ضعيفا منخرطا في الملذات، وترك الحكم لأمه وأخته. لذلك تآمرت عليه الفرق المذهبية غير الإباضية، واتصلت بداعية الفاطميين أبو عبد الله الشيعي الذي نجح في إسقاط دولة الأغالبة؛ ثم توجه إلى الدولة الرستمية وأجهز عليها سنة ٢٩٦هـ[١٩].

ما يهمنا بصدد هذا العرض – المطول نسبيا – هو إبراز تجربة قيام وازدهار واضمحلال وسقوط الدولة الرستمية؛ لا لشيء إلا لأن مؤسسي نظام العزابة أفادو من عهود عبد الرحمن بن رستم وأفلح بن عبد الوهاب وأبو اليقظان محمد التي اتسمت بالعدالة نتيجة التعويل على المذهب الإباضي في رسم سياساتهم. من هذه السياسات وما استجد بعد سقوط الدولة الرستمية من واقع جديد أفضى إلى تشرذم الإباضية جرى صياغة نظام العزابة؛ هذا من ناحية.

من ناحية أخرى؛ أن ما حدث إبان الطور الأخير من تاريخ بني رستم؛ شهد محاولة إصلاح من قبل أحد أفراد البيت الرستمي ويدعى يعقوب بن أفلح؛ حين جرى تقليده إماما من قبل عامة العاصمة تاهرت. لكنه خلع نتيجة تآمر البيت الرستمي – وبالذات نساء القصر – وغادرها إلى واحة وارجلان؛ فالتقاه شيوخ الإباضية ورحبوا به؛ فأقام بها حتى وفاته[٢٠]. لذلك نرى أنه شارك مع شيوخ إباضيتها في إبداع وتأسيس نظام العزابة.

سبق عرض المقومين الأساسين لنظام العزابة؛ وهما الفكر الإباضي، وتجربة الدولة الرستمية. أما المقوم الثالث؛ فيكمن في واحة وارجلان التي شهدت بالفعل أنموذجا يحتذى من النظام الجديد؛ نظام العزابة.

تقع واحة وارجلان في مكان استراتيجي جنوب غربي الصحراء الكبرى[٢١]؛ بحيث شكلت المحطة الأخيرة لتجار الدولة الرستمية مع بلاد السودان الأوسط والغربي. وكانت محصنة بعدة جبال تحيط الواحة؛ الأمر الذي جعلها في مأمن من إغارات الأعداء[٢٢].

إشتهرت الواحة بوفرة مياهها؛ سواء من الأمطار الصيفية الموسمية، أو من وديان تمر بها – وادي مية ووادي كير – ؛ فضلا عن المياه الجوفية[٢٣]. تتوسط الواحة مدينة وارجلان؛ المحاطة بعدة قرى أشبه بالحصون الطبيعية[٢٤].

أما عن سكانها؛ فأكثرهم من بني وركلا أحد بطون قبيلة زناتة، فضلا عن بعض قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية أيضا[٢٥]. كما استوطنها زنوج من بلاد السودان[٢٦]؛ هذا قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

جرى فتح وارجلان في عهد عقبة بن نافع سنة ٦٢هـ، لكن سكانها ثاروا عليه ضمن جيش كسيلة زعيم البربر، كما انضموا بالمثل إلى انتفاضة الكاهنة؛ لا لشيء إلا لأن عقبة – ومن قبله كافة قواد جيوش الفتح – عاملوا البربر رغم إسلام الكثيرين منهم معاملة سيئة. لذلك انصاعوا لحسان بن النعمان – شأنهم شأن كافة قبائل البربر – حين أحسن معاملتهم[٢٧].

إعتنق سكان وارجلان المذهب الإباضي منذ وقت مبكر بعد قدوم الداعية سلمة بن سعيد إلى المغرب بنحو سنوات خمس؛ أي سنة ١١٥هـ على وجه التقريب. شارك سكانها الإباضية في حصار القيروان ضمن كافة إباضية المغرب سنة ١٤٥هـ. ولما قامت الدولة الرستمية عام ١٦٢هـ أعلن سكانها الولاء لأئمتها الأوائل. ولما تفجرت الصراعات القبلية والعنصرية والمذهبية في تاهرت؛ عزف إباضية وارجلان عن المشاركة فيها. بل رحبوا بالثوار من النكار – بعد هزيمتهم في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن – الذين نزحوا إليها، وقاموا بنفس الدور إزاء المعتزلة بعد إخفاق ثورتهم ضد الإمام عبد الوهاب. لذلك ازدادت أعداد سكان وارجلان؛ كما تنوعت مذاهبهم أيضا ما بين إباضية وهبية، وإباضية نكار، ومعتزلة؛ فضلا عن وجود شاحب لأهل السنة المالكية[٢٨].

وقد سبقت الإشارة إلى ترحيب شيخها أبي صالح جنون بن يمريان بالإمام المعزول يعقوب بن أفلح؛ الذي استقر بالواحة مع الكثيرين من أنصاره الذين عاشوا معه حتى وفاته[٢٩].

خشي الداعية أبو عبد الله الشيعي من إعلان سكان وارجلان إماما؛ لإحياء الدولة الرستمية بعد أن أسقطها سنة٢٩٦هـ. وقد واتاه خبر وصول إمامه عبيد الله المهدي إلى الواحة، ورفض سكانها إقامته بينهم وإهانته؛ فغادرها إلى مدينة سجلماسة – حاضرة دولة بني مدرار الصفرية – لكن إمامها قبض عليه وأودعه السجن[٣٠].

بعد تحرير أبو عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي من سجنه بسجلماسة، أنفذ فرقة من جيشه لغزو وارجلان؛ لكنها عجزت عن اقتحامها لحصانتها من ناحية[٣١]، واستئساد أهلها في القتال؛ من ناحية أخرى. لذلك انسحبت فرقة أبو عبد الله الشيعي الذي أدرك استحالة اقتحامها والسيطرة عليها[٣٢].

آنئذ عرض شيخ وارجلان أبو صالح جنون على يعقوب بن أفلح تنصيبه إماما بهدف إحياء الدولة الرستمية؛ لكنه اعتذر لبلوغه الشيخوخة؛ من ناحية، ولتشرذم إباضية المغرب ما بين جبل نفوسة وجزيرة جربة وإباضية تاهرت التي لم يبرحوها؛ من ناحية أخرى. يضاف إلى ذلك خشيته على إباضية وارجلان حتى لا يتعرضوا لما وقع لإباضية جبل نفوسة – حين أقدموا على إحياء الدولة الرستمية – من محن على يد الفاطميين[٣٣]؛ إذ قتل منهم كثيرون، وخربت ديارهم، ونهبت ممتلكاتهم[٣٤].

لذلك ما أن أعلن أبو يزيد مخلد بن كيداد الإباضي النكاري الثورة ضد الفاطميين؛ حتى انضمت إليه نفوسة؛ رغم اعتناقها المذهب الإباضي "الوهبي"، وكافة إباضية المغرب؛ وحتى أهل السنة المالكية نكاية في الفاطميين.

ما يعنينا – بصدد موضوع الدراسة – أن أبا يزيد اختار وارجلان لإعلان الثورة؛ دون غيرها. ونعتقد أن هذا الاختيار كان لإدراكه تميزها الفريد بأن سكانها كانوا على مذاهب كل الفرق الإباضية؛ فضلا عن مذاهب أهل السنة من مالكية وأحناف وأشعرية؛ بالإضافة إلى المعتزلة. والأهم أنهم جميعا كانوا يتمنون إسقاط حكم الفاطميين بالمغرب. لذلك ما أن أعلن دعوته حتى استجاب لها الجميع، وشاركوا في الثورة بالفعل.

معلوم أن أبا يزيد كان إباضيا نكاريا، ومعلوم أيضا أن العداوة بين النكار والإباضية الوهبية كانت متأصلة؛ لكنه نجح في تأليب أهل وارجلان – ومعظمهم وهبية – فضلا عن الفرق والمذاهب الإباضية وغير الإباضية، وتعبئتهم لإعلان الثورة[٣٥]؛ التي انتهت بهزيمته وقتله.

ما يعنينا أن خطبته في وارجلان تضمنت ما يفيد أنه اجتمع بعد إلقائها "بالعزابية في وارجلان"[٣٦]؛ بما يؤكد أن نظام العزابة في وارجلان كان قائما قبل قدوم أبي يزيد إليها، وليس كما أجمع الدارسون على أن تأسيسه حدث حول منتصف القرن الرابع الهجري؛ وهو ما سنعرض له فيما بعد مفصلا.

بعد القضاء على ثورة أبي يزيد؛ أدرك الخليفة المنصور – ومن بعده المعز – ضرورة تغيير سياسة الدولة إزاء الإباضية من العداء إلى المسالمة[٣٧]. إذ عول المنصور على سياسة التسامح؛ فضلا عن تخفيف الضرائب وإلغاء المغارم[٣٨].

أما الخليفة المعز؛ فأمر بطمأنة الإباضية على حياتهم على اختلاف مذاهبهم[٣٩]. كما رحب بمشايخهم في بلاطه، وعقد لهم مناظرات مع نظرائهم من الشيعة الإسماعيلية. ولما انتقل إلى مصر إصطحب معه بعض شيوخ الإباضية للإقامة في القاهرة[٤٠]. ولا غرو؛ فقد كان المعز أرفق بالرعية من المنصور، كما كان أكثر خلفاء الفاطميين بالمغرب حكمة وشغفا بالمعرفة[٤١]. لذلك حل السلام والوداد محل الخصومة والبغضاء؛ بحيث لم يقم الإباضية بأية انتفاضات وعاشوا في ديارهم آمنين|، وتابعوا نشاطهم التجاري والعلمي والتربوي في حرية تامة؛ حسب توجيهات نظام العزابة.

إستجاب الفقه الإباضي لتلك المعطيات؛ فعول الفقهاء على الاجتهاد؛ ليتواءم مع الواقع الجديد؛ وهو ما تبناه نظام العزابة على الصعيد العملي. فنظرا لصرف الإباضية في وارجلان نظرهم عن إحياء "الإمامة"؛ إكتفوا بالعيش في ظل إمارة شبه مستقلة ؛ حسب مبدأ "الولاء والبراءة"[٤٢] الذي أقره الفقهاء آنذاك.

ونظرا لتحسن العلاقة مع الفاطميين – حيث تحولت من العداء إلى الوئام – طور الفقهاء مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"؛ وأعطوه بعدا أخلاقيا بعد أن كان من قبل سياسيا. بمعنى عدم الثورة على الحاكم الفاطمي من ناحية، والتفاني في عمل الخير؛ من ناحية أخرى. أما عن استحداث مبدأ "البراءة"؛ فهو يعني تبرئة الخلافة الفاطمية من عدم الشرعية؛ مسايرة للواقع العملي في خلافة المنصور والمعز؛ حيث سمحوا للإباضية بإدارة أمر واحة وارجلان دون تدخل في شئونها الداخلية. لذلك صدق من قال بأن مفهوم "البراءة" "يحقق غاية عملية سلوكية أكثر منها نظرية"[٤٣]؛ مفادها "ترسيخ الشعور بالإخاء والترابط بين أبناء المجتمع الإباضي"[٤٤] بدلا من مناوءة الفاطميين.

يمكن إيجاز كل تلك الاجتهادات الفقهية السابقة في تخلي الإباضية عن مناوءة الفاطميين نتيجة العجز من ناحية، ونظرا لتحسن معاملة الفاطميين لإباضية وارجلان؛ من ناحية أخرى. لقد جوز فقهاء الإباضية آنذاك هذا الواقع الذي يستحيل تغييره؛ وذلك

في تجويز الأخذ بمبدأ "التقية" الذي كان الإباضية يرفضونه من قبل[٤٥]. ولسوف يثبت العرض – فيما بعد – كيف أن الأخذ بالتقية تمخضت عنه نتائج إيجابية أسفرت عن دور العزابة في ازدهار الحياة الاقتصادية، والوئام الاجتماعي، والنهضة العلمية والثقافية. ولقد لخص أبو زكريا – الذي كان من سكان وارجلان آنذاك – هذا التحول الإيجابي بأن الواحة نعمت – في ظل العزابة – "بالعدل والإنصاف"، ولم يدخر العزابيون وسعا في "مساعدة إباضية المغرب بعامة، فضلا عن إباضية المشرق؛ بعد استيفاء حقوق سكان وارجلان"[٤٦]. والأهم أن أصحاب المذاهب غير الإباضية بالواحة نعموا – شأن إباضيتها – بحال من الرخاء والوئام[٤٧]. وأسفر ذلك عن تقارب فكري بين كافة الفرق والمذاهب؛ خصوصا بين المعتزلة والإباضية[٤٨]؛ وهو ما أوصى به فقهاء الإباضية المجددين شيوخ العزابة[٤٩] بتحاشي الفتن.

أما عن توقيت تأسيس نظام العزابة في وارجلان؛ فهو مثار خلاف بين الدارسين. ويعكس هذا الخلاف تأثيره على التعريف بالنظام نفسه. إذ ذهبت إحدى الدراسات أن لفظ "العزابة" مشتق من لغة البربر؛ فهو مماثل للفظ "أعزابن"؛ دون أن توضح معناه. وترجع نشأة نظام العزابة إلى أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري[٥٠].

وفي هذا الصدد؛ يشاركها باحث آخر في أن نظام العزابة نشأ في القرن الرابع الهجري على يد أبي يزيد، وأنه ظهر في وارجلان في القرن الخامس الهجري عندما قام العزابيون بمبايعته لزعامة الثورة ضد الفاطميين[٥١]. وفي تعريفه للنظام ذكر أنه "هيئة سياسية" ظهر معها نظامان آخران الأول هو "نظام الأخيار"، والثاني هو "نظام الشراة"[٥٢].

وعرفت باحثة ثالثة نظام العزابة بأنه "نظام يحل محل الإمامة – إبتدعه إباضية وارجلان – للحفاظ على كيانهم ومذهبهم؛ دون أن يتعرضوا لغزوات أخرى."[٥٣]. أما عن مؤسسه وتوقيت ظهوره؛ فقد ذكرت "أن الشيخ محمد بن بكر – ٣٤٥-٤٤٠هـ – هو الذي أسسه"، وأطلق عليه "إسم الحلقة"[٥٤].

وذهب باحث رابع أن نظام العزابة "مشتق من لفظ العزوب؛ أي البعد؛ بما يعني العزلة والانقطاع لخدمة المصلحة العامة، والإعراض عن حظوظ النفس من مال وأهل وولد؛ فإن أحسن صاحبها هذه الصفات سمي عزابيا"[٥٥].

وهنا نلاحظ أن آراء هؤلاء الدارسين تتسم بالخلط والتناقض؛ وإن فطن بعضهم إلى سبب ظهور النظام وتعريفه – إلى حد ما – فضلا عن تحديد مهامه. فالباحثة والباحث الأولين ذهبا إلى أن أبا يزيد مخلد بن كيداد هو الذي أبدع نظام العزابة؛ فهو من ثم منسوب في تأسيسه إلى الإباضية النكار. وهو رأي خاطئ يرجع إلى عدم استكناه دلالات خطاب ابن كيداد في وارجلان. إذ لم يكن المخاطبون من النكار؛ بل كان النكار الحضور أقلية محدودة. أما الغالبية فكانوا إباضية وهبية؛ بالإضافة إلى أقلية من أهل السنة. وإذ ورد في خطاب أبي يزيد المذكور عبارة: "... وبايعه العزابة بعد إلقاء الخطاب"؛ فهذا يعني أن نظام العزابة كان موجودا في وارجلان قبل قدوم أبي يزيد إليها بداهة. إذ لو لم يكن موجودا؛ فأي نظام آخر كان يدير شئون واحة وارجلان؟ ومن الذي قاد أهلها لمواجهة غزوة أبي عبد الله الشيعي لوراجلان؟ وهل كان من الممكن أن يجمع سكانها – وهم أخلاط شتى من العناصر والقبائل والطوائف والمذاهب – على مبايعة أبي يزيد دون ضابط يتمثل في نظام حكم قوي نافذ يدين له الجميع بالطاعة؟

اما زعم الباحثان بأن العزابة كانت نظاما سياسيا فقط؛ فهو مردود؛ وهو ما سنوضحه فيما بعد.

بخصوص قول الباحث الثاني بوجود نظامين آخرين موازيين لنظام العزابة؛ ما ينم عن عدم فهم أوليات الهيكل التنظيمي للعزابة. فنظام "الأخيار" الذي أشار إليه؛ ليس إلا المجلس الاستشاري المعاون لـ"شيخ العزابة"، وهو ما سنعرض له فيما بعد أيضا. أما نظام "الشراة" الذي أشار إليه الباحث؛ فيدخل أيضا في صميم بنية نظام العزابة. إنهم مجموعة من فقهاء المذهب الإباضي نيطوا من قبل شيخ العزابة بمراقبة أعمال العزابات المحلية في الواحة، وإعلام الشيخ بما عاينوه.

بخصوص قول الباحثة الأولى أن نظام "الحلقة" يعني نظام "العزابة"؛ ما ينم عن عدم إدراك مفهوم العزابة أساسا. إذ المقصود بـ"الحلقة" "حلقات الدرس" التي يشرف عليها أحد مستشاري "الشيخ"؛ الذي أولى التعليم اهتماما خاصا؛ كما سنوضح فيما بعد.

أما عن تعريف نظام العزابة عند الباحث الثالث؛ فهو أقرب للصواب؛ باعتبار العزابة نظاما يحل محل الإمامة، ويتمتع بصلاحياتها. لكنه أخطا حين قصر أسباب ظهور العزابة على "الحرص بألا يتعرض أهل وارجلان لغزوات أخرى". والصواب أن النظام أسس لتحقيق أهداف كثيرة – سنذكرها في موضعها المناسب من العرض – منها ضمان الأمان للسكان بطبيعة الحال.

بخصوص الباحثين الثالث والرابع؛ ذهبا إلى أن ظهور نظام العزابة حدث حول نهاية القرن الرابع الهجري بفضل الشيخ محمد بن بكر؛ وقد سبق لنا إثبات خطئه، والصواب أنه نشأ بعد سقوط الدولة الرستمية عام ٢٩٦هـ مباشرة؛ وهو ما سنبرهن وندلل عليه فيما بعد.

أخطا الباحث الرابع بالمثل في تعريفه نظام العزابة تعريفا أقرب ما يكون إلى نظم الطرق الصوفية في العصور الإسلامية المتأخرة. وإن أصاب الباحث في تحديد هدف نظام العزابة في "الانقطاع إلى خدمة المصلحة العامة".

ويؤخذ على الباحثين السابقين جميعا القول بارتباط نشأة نظام العزابة بإسم الشيخ محمد بن بكر؛ تأسيسا على قراءة خاطئة لنص الدرجيني – في هذا الصدد – حيث يقول: "إن بداية استعمال هذا اللقب كان في أيام أبي عبد الله محمد بن بكر لما أسس الحلقة، ورتب قواعدها"(٥٦). إذ يكشف استكناه مضمون النص؛ أن كلمة "اللقب" يعزى إلى كلمة "الحلقة"، وليس إلى مصطلح "العزابة". وبديهي أن يتأخر ظهور الحلقة إلى وقت محمد بن بكر؛ لا لشيء إلا لأن العزابيين كانوا – قبل زمنه – مهمومين بأمن الواحة التي تعرضت للغزو الفاطمي، شأنها شأن حبل نفوسة وجزيرة جربة؛ حيث عانى الإباضية صنوف الاضطهاد والبطش في عهدي الخليفتين المهدي والقائم؛ كما أثبتنا من قبل، ولم يتنفسوا الصعداء إلا في عهدي المنصور والمعز، وهو ما أثبتناه بالمثل من قبل. وبديهي أن يهتم العزابيون بالعلم والتعليم بعد حلول السلام والوئام محل الخصومة والعداء بين الفاطميين والإباضية؛ فتأسست لذلك "حلقات" الدرس التي اهتم بها الشيخ محمد بن بكر، حسب ما ذهب إليه الدرجيني.

ويحق لنا أن نجزم بأن نشأة نظام العزابة تمت بعد سقوط الدولة الرستمية مباشرة؛ تعويلا على نص قاطع أورده الشماخي قال فيه: "كان نظام العزابة في مبتداه عرفا يسير عليه الناس؛ حتى جاء الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر الذي أقامه الإباضية مقام الإمام في جميع الأمور والأحكام"(٥٧).

من هذا النص المهم – الذي لم يدرك الباحثين السابقين مغزاه – نؤكد أن نظام العزابة كان موجودا بالفعل "عرفا"، لم يفصح عنه الإباضية إبان مرحلة العداء مع الفاطميين؛ أخذا بمبدأ "التقية"، ثم جرى ظهوره علنا؛ إبان مرحلة الوئام بين الخليفتين المنصور والمعز وبين إباضية وارجلان.

فماذا عن بنية نظام العزابة في وارجلان؟

كانت بنيته مؤسسة على التراتبية – التي صاغها الشيخ محمد بن بكر – وحافظ عليها معاصروه ولاحقوه من شيوخ النظام؛ حتى وفاته.

ونلاحظ أنه تأثر بنظام الإمامة الذي وضعه عبد الرحمن بن رستم الذي أفاد في ترتيبه من خبرة الفرس في مجال نظم الحكم؛ بعد أن أسبغ عليه قيم المذهب الإباضي. يفهم ذلك من قول أحد كبار مؤرخي الإباضية(٥٨) بأن محمد بن بكر نقل إلى "شيخ العزابة" واجبات نظام الإمامة بحيث "حل الشيخ في نظام العزابة محل الإمام في جميع الأمور والأحكام".

على نهجه سار "شيوخ العزابة"؛ مع إضافة بعض الأحكام المستحدثة من قبل فقهاء الإباضية – في هذا العصر – لتساير معطيات الواقع آنذاك. لذلك؛ لم يوفق الدارسون السابقون الذين وسموا نظام العزابة بالطابع الديني.

كان اختيار "شيخ" العزابة صنو اختيار مؤسس الدولة الرستمية؛ من حيث شروط الاختيار، التي تتمثل في التدين والعلم والسابقة والخبرة؛ دون اعتبار للنسب واللون؛ فكان اختيار عبد الرحمن بن رستم الفارسي الأرومة لحكم أمة من البربر(٥٩). وبعد تنصيبه إماما وضع نظم الدولة الإدارية والمالية والقضائية؛ لإكسابها صفة المشروعية(٦٠).

بالمثل؛ جرى اختيار "شيوخ" العزابة؛ حسب الشروط نفسها؛ فضلا عن المهام ذاتها في تحويل "الأعراف" التي كانت مصدرا للتشريع إبان مرحلة الستر إلى نظم ورسوم مستقاة من الفقه الإباضي؛ وهو ما عرضناه من قبل.

وإذا كان مؤسس دولة بني رستم يسترشد في سياسته وأحكامه بمجلس للمشورة من شيوخ المذهب؛ سار شيوخ العزابة على النهج ذاته؛ مع اختلاف بيّن أوجبته الضرورة. فإذا كانت مهمة مجلس الشورى الرستمي تقتصر على اختيار الإمام، وإسداء النصائح، والالتزام فيما يصدره من أحكام؛ تمتع نظيره العزابي – فضلا عن اختيار "الشيخ" والمشورة – بسلطات أوسع؛ إذ كان بمثابة "سلطة تنفيذية" أشبه بنظام الوزارة. حيث تولى أعضاؤه مهام نظم الشرطة والحسبة والقضاء والتعليم ونحوها؛ دون أن يتسموا بألقابها(٦١). وفي هذا الصدد تمتع من تولوها بسلطة مطلقة في ممارسة وظائفهم، وحظوا بالتوقير والتقدير من قبل الرعية(٦٢).

ينسحب الحال نفسه على عزابات مدن وأقاليم الواحة التي حذت حذو عزابة الحاضرة وارجلان. وفي كل العزابات؛ كانت اجتماعاتها تعقد في المسجد؛ حيث خصص بكل مسجد مقر للعزابة(٦٣).

أما عن رسوم الحكم؛ فكانت بسيطة للغاية؛ منها – على سبيل المثال – أن كل أعضاء العزابات في الواحة كانوا يتميزون بلباسهم عن لباس الرعية، كما كان لكل مرتبة داخل العزابة لباسها الموحد والمميز(٦٤).

كان شيخ كل عزابة يراقب عن كثب تصرفات أعضاء العزابة؛ وذلك عن طريق فرق من ثقات شيوخ المذهب عرفوا باسم "الشراة" – وهو نظام كان موجودا في الدولة الرستمية – يختارهم الشيخ من أهل التقى والورع والأمانة. لذلك نيطوا بمهمة أخرى – إلى جانب مراقبة أعضاء العزابة – تتمثل في مراقبة سلوك الرعايا أيضا، وتقويم المعوجين؛ فضلا عن مراقبة المخالفين من أهل البدع والضلالات؛ إنطلاقا من مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(٦٥). أما إذا أكد الشراة خروج أحد أعضاء العزابة عن المألوف، وأخل بواجباته؛ يرفع الأمر إلى شيخ العزابة؛ وغالبا ما كان يستجيب لشهاداتهم، ويعاقب العضو بالعزل(٦٦).

وعلى الرغم من تمتع "الشيخ" بصلاحيات واسعة؛ كان مقيدا في سياساته وأحكامه بموافقة أو رفض مجلس المشورة. وعلى الرغم من مسئولياته عن كل أمور الرعية؛ كان يتطوع – في الغالب الأعم – بالإشراف على نظام التعليم؛ بل وينفق من ماله الخاص على طلبة العلم. وما كان يدخر وسعا في كسب مودة الأثرياء الذين لم يبخلوا بالإنفاق؛ يستوي في ذلك الرجال والنساء[٦٧]. ومن الشيوخ من لم يكتف بالإنفاق على طلبة الواحة، بل أنفق بالمثل على عزابات أخرى خارجها[٦٨].

كان الشيخ أيضا مسؤولا عن وضع برامج التعليم؛ حيث جرى الاهتمام بعلوم القرآن؛ كالتفسير وعلم القراءات، وعلم الفقه، وتعاليم المذهب الإباضي، وتاريخ الإباضية في المشرق والمغرب، فضلا عن مبادئ الرياضيات. كما كان يشرف على حلقات الدروس في المساجد؛ فيما يتعلق بنشاط "العرفاء" والمعلمين.

أما طلاب العلم؛ فكانوا يتمتعون بمجانية التعليم؛ فضلا عن إمدادهم بالطعام واللباس وأدوات الدراسة[٦٩].

ثمة وظائف أخرى تتعلق بنظام العزابة، كإمامة الصلاة، والأذان، والأوقاف؛ وحتى من يتولون مهام وآداب وطقوس الموتى[٧٠].

أما عن وظائف حلقات الدرس؛ فتتمثل في إشراف شيخ العزابة، ومن الشيوخ من تولوا التدريس إلى جانب مسئولياتهم الأخرى. أما وظيفة "العريف"؛ فمهمته إعداد الطلبة، والإشراف على طعامهم، ومراقبة سلوكهم. وبعد إجازة نجاحهم؛ يتوجهون إلى أماكن سكناهم ليفقهون العوام في تعاليم المذهب، وتعليم الصغار[٧١].

إلى جانب العزابة، أسس الشيخ محمد بن بكر هيئة لمساعدة العزابة؛ عرفت باسم "منظمة إيروان"[٧٢]؛ وتختص بتحفيظ القرآن للصغار[٧٣]، ويقوم "الحفاظ" بتلك المهمة بتكليف من شيخ العزابة[٧٤]. وغالبا ما كان ينفق شيوخ العزابة عليها "من الأموال المخصصة للدعوة"[٧٥] للمذهب الإباضي؛ بطبيعة الحال.

خلاصة القول؛ أن نظام العزابة يعد إبداعا من لدن فقهاء المذهب الإباضي إستهدف تحقيق أمرين :

أولهما>> القيام بدور الإمامة في إدارة شئون واحة وارجلان إبان ظروف صعبة وعصيبة.

ثانيهما>> الحفاظ على المذهب الإباضي من الاندثار بعد سقوط الدولة الرستمية.

وترى إحدى الدارسات بأن نظام العزابة نجح في تحقيق المهمة الأولى؛ إذ "وفق في إقرار الأمن، ونبذ الفتن الداخلية"[٧٦]. في حين أكدت باحثة أخرى أنه "لولا نظام العزابة لقضي على إباضية المغرب"[٧٧]. وعندنا أن دور العزابة كان أشمل وأكثر أهمية من مجرد تحقيق هذين الهدفين المهمين بالفعل. يتضح ذلك من محاولة الوقوف على الدور السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي والثقافي؛ فضلا عن الإسهام في نشر الإسلام وحضارته في أفريقيا جنوبي الصحراء؛ خصوصا في بلاد السودان الأوسط، والسودان الغربي. وهو ما نعرض له على النحو التالي:

بخصوص دور نظام العزابة في واحة وارجلان؛ سبق إثبات جهود فقهائها في الاجتهاد للتوفيق بين معطيات واقعهم السياسي في ظل حكم الفاطميين، وبين تعاليم المذهب الإباضي التي كانت سائدة إبان وجود الدولة الرستمية. وقد وفقوا في هذا الصدد بإحلال مبدأ "الولاء والبراء" محل حكم الإمامة؛ وذلك بالاستعاضة عنها بحكم العزابة. كذا الأخذ بمبدأ "التقية" الذي كان مرفوضا من قبل؛ مراعاة للواقع الجديد. إذ لم يكن بوسع الإباضية الأخذ بمبدأ "الثورة على أئمة الجور"؛ لمواجهة عدو أكبر قوة وأشد بطشا.

ولما جنح الخليفتان المنصور والمعز إلى السلم وموادعة إباضية وارجلان؛ أجاز فقهاؤها الإباضية هذا الواقع المستجد "إلى أجل ريثما يتملكون القوة، وعندها يجوز نقض المسالمة"[٧٨]. فإذا ظلوا على ضعفهم؛ فلا مناص من المسالمة "لأن السلامة لا يعدلها شيء، ولا يتكلف من الأمور ما تعجز عنه"[٧٩].

سبق لنا أيضا الإشارة إلى رفض إباضية وارجلان إقامة عبيد الله المهدي الفاطمي عندما استدعاه داعيته أبو عبد الله الشيعي من الشام لإعلانه خليفة في المغرب، واضطر المهدى إلى الإقامة في وارجلان – خوفا من عيون العباسيين – ريثما تتاح الفرصة للقاء داعيته في إفريقية. لكن أهلها طردوه وسخروا منه؛ فتوجه إلى سجلماسة؛ لكن أميرها اليسع بن مدرار أودعه السجن، ونجح داعيته في تحريره. فانتقم الداعية من أهل وارجلان بإرسال فرقة من جيشه، عاثت فيها فسادا وتخريبا.

أما عن علاقة عزابة وارجلان بإباضية نفوسة وجربة وبلاد الجريد؛ فنعلم أن الشيخ محمد بن بكر – بعد تحسن العلاقة مع الفاطميين – لم يدخر وسعا في تقديم العون لهم، وقام بالفعل بزيارة الكثير من عزاباتهم – وخاصة عزابة نفوسة – وأوصى شيوخ عزابية وارجلان قبل وفاته بإحكام الصلات معهم[٨٠]. وقد أخذوا بنصائحه – حتى بعد وفاته – وسمحوا لتجار الإباضية بالقدوم إلى وارجلان للإفادة – عن طريق تجار وارجلان – من الاتجار مع بلاد السودان[٨١]. ناهيك عن التواصل العلمي مع الكثر من العزابات في المغرب الأوسط والأقصى؛ وهو ما سنعرض له فيما بعد.

أما عن علاقة عزابية وارجلان بإباضية الشرق، فقد توطدت؛ لا لشيء إلا لأن إباضية الشرق – سواء في البصرة أو عمان – تعرضوا لظروف صعبة؛ شأنهم شأن إباضية المغرب. لذلك كانوا يتلاقون في مواسم الحج، ومنها يصحبهم حجاج عمان والبصرة

لزيارة إخوانهم في المذهب[٨٢]. وبديهي أن يتشاوروا في الأمور السياسة، فضلا عن شئون النشاط العلمي والتجارة[٨٣]. إذ نعلم أن الكثيرين من تجار إباضية الشرق تاجروا مع بلاد السودان عن طريق إخوانهم في وارجلان[٨٤].أما عن التواصل العلمي؛ فكان على قدم وساق؛ إذ حرص إباضية المغرب على الحصول على كتب المذهب في الشرق، وقاموا بنسخها، وانكبوا على درسها وتدريسها في حلقات العزابة[٨٥].

أما عن سياسة العزابات في وارجلان إزاء الرعية؛ فقد نجحت – إلى حد كبير – في تحقيق الوداد بين سكان مختلفين في النسب والمذهب. فقد حرص شيوخها على إيجاد حلول ناجعة لما يطرأ من مشكلات محدودة العدد؛ إذ لم نقف منها – في المصادر – إلا على اثنتين. الأولى وقعت إبان شياخة أبي صالح الياجراني – ٣٥٠-٤٠٠هـ – الذي غادر وارجلان بسبب فتنة بين أهلها – لم تذكر المصادر معلومات عنها – ثم عاد إليها بعد عدة سنوات[٨٦]. والثانية وقعت في زمن الشيخ محمد بن بكر، لم يذكر عنها المؤرخون شيئا أيضا، إلا أن "أهل وارجلان كانوا يتقاتلون على غير شيء"[٨٧].

يدل ذلك على نجاح العزابات في وارجلان في اتباع سياسات عادلة وفق نظام قضائي نزيه؛ فضلا عن إقرار الأمن داخل الواحة. وثمة سبب مهم يتمثل فيما نجم عن اشتغال معظم سكان الواحة بالتجارة – مع بلاد السودان خصوصا – وما نجم عن ذلك من ثراء أهلها وازدهار عمرانها؛ بما دعم أواصر الوداد بين الجميع.

على أن فتنا كثيرة ومشكلات عصية، وصراعات ضارية وقعت بين سكان وارجلان، الذين أحيوا نعرات العصبيات ونزعات الخلافات المذهبية بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، واتباع الزيريون _أتباعهم_ مع كافة المذاهب المغايرة للمذهب الإسماعيلي سياسة البطش والاضطهاد؛ وهو ما يخرج عن الإطار الزماني لموضوع الدراسة[٨٨].

أما عن دور عزابات وارجلان على الصعيد الاقتصادي؛ فنعرض له على النحو التالي:

أشرفت عزابات واحة وارجلان على الحياة الاقتصادية؛ إنطلاقا من تمجيد المذهب الإباضي لقيمة العمل. إذ جرى اعتبار العمل جزءا مكملا للإيمان. وإذ عزفت العزابات عن السياسة – إلى حد كبير – إهتمت اهتماما أساسيا بالزراعة والرعي والصناعة بوجه عام، وبالتجارة على نحو خاص.

بخصوص الزراعة؛ إشتهرت الواحة بتعدد مصادر المياه – كما ذكرنا من قبل – سواء من الأمطار الصيفية أو الوديان التي تخترق الواحة، أو المياه الجوفية[٨٩]. ولما كانت تربة الواحة تتسم بالخصوبة، أشرفت العزابة على مشروعات الري؛ فوزعت المياه – بعدالة – على الأراضي الزراعية حسب نظام "النوبات"؛ الذي يكفل استيفاء الرقعة الزراعية حقها من مياه الري[٩٠]. وذلك بالإفادة من الخبرات الفارسية الموروثة عن الدولة الرستمية؛ فيما يتعلق بإجراء المياه في قنوات مغطاة؛ حتى لا يتبخر جزء منها[٩١]. عولت العزابات كذلك على تطهير مياه الآبار؛ حسب توجيه الفقه الإباضي[٩٢]. كما حرصت على إخصاب التربة قبل الزراعة بما أسفر عن تعاظم غلاتها[٩٣].

أما عن علاقات الإنتاج؛ فقد جرت بطريقة المزج بين الأعراف القبلية وتعاليم المذهب الإباضي. فقد جرى توزيع الأرض قسمة بين القبائل، وشاع نظام "الخماسة" الذي يعني قيام القبيلة المالكة للأرض بإعدادها للزراعة، والتكفل بتقديم البذور، والري؛ بينما يقوم المزارعون بأعمال الفلاحة وحصد المحصول؛ الذي يؤول خمسه للمزارعين وأربعة أخماسه للقبيلة المالكة[٩٤].

إشتهرت الواحة بإنتاج معظم المحاصيل والفواكه والخضروات؛ فضلا عن النخيل الذي اشتهر بجودة تموره التي كان بعضها يصدر إلى بلاد السودان بعد تجفيفها[٩٥]. كما اشتهرت الواحة بأشجار الزيتون الذي كان طعاما للكافة؛ فضلا عن عصره واستخدام زيته للطعام أيضا والإضاءة وعلاج بعض الأمراض[٩٦].

قصارى القول؛ أن الإنتاج الزراعي كان يغطي حاجات السكان، ويصدر الباقي منه إلى بلاد السدوان؛ على نحو خاص[٩٧].

أما عن حرفة الرعي؛ فقد كانت وثيقة الصلة بحرفة الزراعة في الغالب الأعم، إذ تحدثت المصادر الإباضية عن ضخامة قطعان ملاك الأراضي؛ خصوصا من الجمال والغنم والماشية[٩٨]. كما تحدثت عما يقدم منها للزكاة، وما يستفاد منها في الصناعة[٩٩].

أما عن الصناعة؛ فقد اعتمد حرفيوها أساسا على الإنتاج الزراعي والحيواني، كتجفيف التمور، وعصر الزيتون، وصناعة النسيج والخيام من الصوف، وصناعة النعال؛ إلى جانب المصنوعات الخشبية كصناعة الأثاث والأواني المنزلية، والآلات الزراعية، فضلا عن صناعة الفخار. أما الصناعات المعدنية؛ فاختص اليهود بإنتاجها. كذلك كان الحال بالمصنوعات الذهبية[١٠٠].

أما عن دور العزابات بصددها؛ فقد خصصت أعضاء من مجالسها لمراقبة الحرفيين؛ بهدف حضهم على الإتقان، وعدم الغش والتدليس؛ وهو ما كان المحتسب يقوم به في الدولة الرستمية من قبل؛ وفقا لتعليمات فقهاء الإباضية[١٠١].

أما التجارة؛ فقد شكلت عصب الاقتصاد في واحة وارجلان. لذلك مجد الفقه الإباضي هذه المهنة والمشتغلين بها لو عملوا بتعاليمه "في الكسب الحلال"[١٠٢]. ونظرا لموقع وارجلان الذي جعلها أقرب مكان في المغرب لبلاد السودان الأوسط والغربي، أصبح تجارها أشهر تجار المغرب آنذاك في التعامل مع ملوك التكرور وغانة؛ الأمر الذي أفضى إلى ثرائهم؛ ومن ثم ثراء أهل الواحة. إذ

حاز تجار الإباضية النصيب الأكبر من الذهب والرقيق؛ وهما أهم سلعتين في المعمور كله آنذاك[١٠٣]. وإذ حق لأحد الدارسين القول بأن هاتين السلعتين أفضيتا إلى "تشكيل بنية المجتمع الوارجلاني"[١٠٤]، يحق لنا القول بأنهما أثرتا تأثيرا إيجابيا على نظام العزابة الذي كان يعتمد في مشروعاته العمرانية على أموال تجار الواحة؛ خصوصا ما يتعلق منها بالإنفاق على الدعوة للمذهب الإباضي داخل المغرب، ونشر الإسلام في بلاد السودان؛ كما سنوضح فيما بعد.

لذلك؛ أفرد الفقه الإباضي صفحات عديدة عن حرفة التجارة. وحسبنا الإشارة إلى كتاب الربيع بن حبيب – الذي اعتمدنا عليه فيما سبق – الذي كرس في فقهه "كتابا للبيوع". وقد عرض فيه للكسب الحلال، ومنع الغش والتدليس، ونهى عن الاحتكار...الخ مدعما أحكامه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية[١٠٥].

وغني عن القول؛ أن العزابات الوارجلانية أرفقت مع كبار التجار دعاة للإسلام حسب تعاليم المذهب الإباضي، كما كلفت الدعاة بمراقبة التجار فيما يتعلق بالبيع والشراء، والموازين والمكاييل، والالتزام بأخلاقيات التعامل حسب أحكام المذهب الإباضي.

وعلى صعيد التجارة داخل الواحة؛ لم يبخل الكثيرون من كبار التجار في التبرع بأموال خاصة بدعم نظام العزابات. كما أنفق بعضهم على حلقات الدرس تشجيعا لطلبة العلم على التعلم ثم التعليم[١٠٦].

مما يدل على وثوق العلاقة بين عزابات وارجلان وتجارها؛ "إلتزم هؤلاء التجار بنصائح العزابيين"؛ ومنها: "إذا دخل الحرام السوق؛ يتركون فيه الشراء ثلاثة أيام"[١٠٧].

لذلك – وغيره كثير – إكتسب تجار وارجلان خبرة متفردة ليس فقط في مرافقة القوافل التجارية القادمة من المشرق والمغرب؛ لمعرفتهم بمسالك التجارة ومواجهة أخطار الطريق[١٠٨]؛ بل أيضا في ممارسة الحرفة التي تمسكوا بصددها بأخلاقيات المذهب الإباضي؛ وأثروا لذلك ثراءا كبيرا من الكسب الحلال، الذي انعكس من ثم خيرا على سكان الواحة، وعلى عمرانها[١٠٩]؛ خصوصا فيما يتعلق بحياتهم الاجتماعية.

بخصوص دور عزابات وارجلان في الحياة الاجتماعية؛ نؤكد تأثير الواقع الاقتصادي في إحداث الوئام بين سكانها الذين تعددت أعراقهم الإثنية ومذاهبهم الدينية. إذ كان سكان الواحة من عناصر شتى؛ من العرب والفرس الذين هاجروا من تاهرت بعد سقوط دولة بني رستم. كذا من قبائل البربر من زناتة وصنهاجة؛ فضلا عن عبيد السودان المجلوبين لحراسة القوافل، واليهود الذين استوطنوا الواحة واحتكروا الصناعات المعدنية بها. أما عن الطوائف المذهبية، فقد وجد الكثيرون من شتى فرق الإباضية؛ الذين استوطنوا وارجلان هربا من بطش الفاطميين، فضلا عن المعتزلة، وبعض الأشاعرة الذين كانوا على فقه الإمام مالك.

ما يعنينا أن نظام العزابة احتوى تلك العناصر الإثنية والطوائف المذهبية التي لم تجد مناصا من الخضوع للعزابة التي تكونت من الإباضية الوهبية؛ لا لشيء إلا لأنهم كانوا يشكلون أغلبية السكان بوارجلان. والحق أن العزابيين عاملوا السكان من غير مذهبهم على قدم المساواة مع الإباضية الوهبية "لكي يستفيدوا مصلحة لدينهم من علم وعمل"[١١٠]؛ الأمر الذي جعل بقية السكان لا يتحرجون من قبول الفقه الإباضي الوهبي السائد في سياسة العزابات[١١١]. ومع ذلك لم يخل الأمر من وجود بعض الاحتكاكات؛ خصوصا بين الإباضية الوهبية والنكار[١١٢]؛ وفق العزابيون في تجاوزها عن طريق إقناع النكار بأن جميع السكان على اختلاف مذاهبهم "من أمة محمد"[١١٣]. والأهم؛ عقد مناظرات بين الطرفين أفضت إلى تخفيف العداء بينهما. وقد اختفى العداء بعد السماح للنكار بالمتاجرة رفقة الوهبية مع بلاد السودان؛ الأمر الذي ساعد على تذويب تلك النزعات العدائية[١١٤]. ويحسب للعزابة أيضا السماح لكل فرقة مذهبية بالرجوع إلى شيوخها لحل مشاكلهم؛ حسب أحكام فقهها. هذا فضلا عن حرص العزابيين على مشاركة كافة الفرق في مناسبات الأفراح والأتراح[١١٥]. لذلك نجحوا في سياسة الإصلاح بين كل السكان "خدمة للدين، ومصلحة المسلمين، وترك الحرام"[١١٦]. أما من يشذ عن هذه السياسة؛ يطبق العزابيون عليهم مبدأ "البراءة"؛ أي مقاطعة المخطئين؛ حتى يتوبوا إلى الرشد[١١٧].

لذلك؛ يمكن القول أن تجديد الفقه الإباضي ليوائم معطيات الواقع كان بمثابة "دستور" للتعايش السلمي، وحسن المعاملة[١١٨]. وهو ما أخذ به "شيوخ" العزابة؛ حيث جعلوا مبدأ "الوفاق" بديلا لمبدأ "الثواب والعقاب".

أما عن دور العزابة في الحياة الثقافية؛ فيتسم بالتوفيق والنجاح بالمثل؛ لا لشيء إلا لأن الغاية الأولى التي توخاها النظام تمثلت في الحفاظ على المذهب الإباضي، والحرص التام على ألا يندثر. لذلك انكب فقهاء المذهب على البحث والدرس بعد الاطلاع على تراث السلف. وفي هذا الصدد؛ أفادوا من المخطوطات الخاصة بهذا التراث التي كانت محفوظة في المكتبة المعصومة بتاهرت؛ بعد أن نجح إباضية تاهرت في نقلها إلى وارجلان قبيل سقوطها على أيدي جيش الداعية أبي عبد الله الشيعي.

لم يكن الاطلاع على تلك المخطوطات قاصرا على الفقهاء؛ بل اطلع عليها فقيهات المذهب اللائي عرفن باسم "العجائز"؛ لبراعتهن في علوم العصر؛ خصوصا في مجالي الفلك والفقه[١١٩]؛ وتمييزهن عن النساء اللائي يغزلن الصوف[١٢٠].

حرص العزابيون على ألا يطلع على تلك المخطوطات إلا الإباضية فقط[١٢١]. يستوي في ذلك الرجال والنساء، وفقهاء المذهب وطلبة "الحلقة". وقد شجع شيوخ العزابة طلبة العلم – على نحو خاص بعد اجتيازهم اختبارات من قبل كبار الفقهاء – على

الإسهام في تجديد الفقه الإباضي. وقدم لهم كبار التجار مكافآت مالية لحفزهم على العمل(١٢٢). ولا غرو؛ فقد كان بعض هؤلاء التجار علماء وفقهاء أيضا(١٢٣). وقد مارسوا التجارة لا لكسب المال؛ بل لتقديس المذهب الإباضي لقيمة العمل(١٢٤).

وقد سبق لنا أيضاح دور العزابيين في الاهتمام بالعلم تحصيلا وتدريسا؛ إبتداء بشيوخ العزابات، وانتهاء بمدرسي المرحلة الأولى. ولا عجب إذ كان من شروط الالتحاق بمجلس شورى العزابة العلم والتقي؛ وهو ما عرضنا له من قبل مفصلا. لذلك أبدع الفقهاء وطلاب العلم ما يمكن أن نطلق عليه "فقه الضرورة"؛ بمعنى تطويع فقه القدماء ليتسق مع معطيات الواقع الصعب بعد القضاء على الإمامة الرستمية. وفي هذا الصدد جرى تبرير ما جرى من تعديلات في الفقه السابق؛ حيث قدم المجددون شروحا لفقههم الجديد، بعد نقد بعض أحكام الفقه السابق(١٢٥). ويذهب أكبر مؤرخي الإباضية آنذاك إلى أن الإمام الرستمي المعزول يعقوب بن أفلح حين نزل وعاش بوارجلان حتى وفاته، قدم معه بعض الفقهاء المناصرين له في تاهرت، وعاشوا في وارجلان؛ أسهموا في تجديد الفقه بها ليتسق مع نظام العزابة الذي حل محل نظام الإمامة؛ لذلك "غدت وارجلان وريثة تاهرت"؛ على حد قوله(١٢٦).

لسنا بحاجة إلى ذكر تفصيلات عن النهضة العلمية في كافة العلوم الدينية والدنيوية بوارجلان؛ فقد كتب عنها الكثير من ناحية(١٢٧)، ولأننا نعرض فقط لدور العزابة في قيام ومتابعة تلك النهضة؛ إلتزاما بموضوع الدراسة؛ من ناحية أخرى.

أما عن الدور الديني الذي اضطلعت به عزابات واحة وارجلان؛ فكان ميدانه بلاد السودان الأوسط والغربي. ومعلوم أن بواكير نشر الإسلام في تلك الأصقاع بدأت على أيدي أئمة الدولة الرستمية. إذ كانت قوافل التجار مصحوبة بدعاة المذهب الإباضي الذين لم يدخروا وسعا في نشر الإسلام بين بعض قبائل السودان الأوسط؛ مثل قبائل الصوصو والكوكو والكانم وزغاوة(١٢٨). ولم تمتد إلى بلاد السودان الغربي؛ حيث مملكتي التكرور وغانة. وبالرغم من وجود نظام ملكي بهما، كانت شعوبها الوثنية تعيش حالة من الفوضى(١٢٩).

ما يعنينا أن دعاة بني رستم إلى بلاد السودان الأوسط كانوا ينطلقون من واحة وارجلان رفقة تجارها(١٣٠). ثم توقفت جهودهم بعد قيام الدولة الفاطمية، فارتد الكثيرون ممن اعتنقوا الإسلام في بلاد السودان الأوسط، وأما من تمسكوا بالإسلام منهم؛ كان إسلامهم سطحيا(١٣١).

لما استقرت الأمور في وارجلان بعد تأسيس نظام العزابة؛ جرى استئناف جهود التجار والدعاة في نشر الإسلام ببلاد السودان. وقد بدأوا جهودهم بإعادة المرتدين إلى حظيرة الدين، وأحرزوا نجاحا مرموقا. ثم عولوا على تبصيرهم بتعاليم الإسلام وفقهه، وتعريفهم بالمذهب الإباضي عن طريق برامج التعليم الأولي التي أقرتها العزابات في وارجلان؛ حتى حسن إسلامهم. فأنشأوا المدارس والمساجد، ونجح الدعاة الوافدون من العزابات في تعليمهم مبادئ اللغة العربية؛ وآداب السلوك التي أقرها المذهب الإباضي(١٣٢)؛ خصوصا بعد أن تزوج الدعاة والتجار من نساء السودان الأوسط، وأنجبوا منهن جيلا تربى وتعلم الكثير من آبائهم؛ يجيد العربية ويلم بمبادئ الإسلام؛ عقيدة وشريعة؛ فضلا عن الإحاطة بتعاليم المذهب الإباضي(١٣٣).

بعد إقرار نشر الإسلام وحضارته في السودان الأوسط؛ شرع الدعاة يدعون له في السودان الغربي؛ أي في مملكتي التكرور وغانة. ولم يجد الدعاة عناء في مهامهم؛ خصوصا بعد إسلام ملوكها؛ الذين اختاروا رجال بلاطهم وتراجمتهم من المسلمين. أكثر من ذلك؛ فقد تطبعوا بالكثير من عادات الدعاة سواء في سلوكهم؛ وحتى في ملابسهم. لذلك أقبلت الجموع في المملكتين على اعتناق الإسلام اقتداء بملوكهم(١٣٤).

ما يعنينا أن عزابات وارجلان وجهودها المحمودة كانت من وراء تحقيق تلك الإنجازات. وحسبنا الإشارة إلى أن شيوخها خصصوا في مجالس المشورة مستشارين من المتعمقين في الدين والمذهب للاضطلاع والإشراف على جهود الدعاة في بلاد السودان الأوسط والغربي؛ بتوجيه من الشيخ محمد بن بكر(١٣٥). ولم يدخر شيوخ العزابات وسعا في إنفاذ دعاة جدد مؤهلين للارتقاء بنظام التعليم. وفي هذا الصدد قدموا للمسلمين في بلاد السودان العديد من كتب الفقه والتفسير والأحاديث النبوية؛ بالإضافة إلى اللغة العربية(١٣٦). هذا فضلا عن إنشاء إثنتا عشر مسجدا عينوا لها أئمة وفقهاء ومؤذنين من قبلهم(١٣٧).

بديهي أن يقبل المسلمون في بلاد السودان على اعتناق المذهب الإباضي، وبديهي أيضا أن يقدم الكثيرون منهم إلى زيارة وارجلان؛ سواء للمزيد من التفقه في الدين والمذهب، أو للتجارة. لذلك لم يخطئ من ذهب إلى أن "وارجلان كانت بمثابة المركز الريادي في التجارة ونشر الإسلام وحضارته في بلاد السودان"(١٣٨). ونضيف؛ أن عزاباتها كانت من وراء تلك الريادة. وحسبنا الإشارة إلى أنها أقامت مركزا دائما للدعوة في أحد أحياء حاضرة غانة؛ أطلق عليه "الحي الإسلامي"؛ فضلا عن مسجد فخم خصص لملوكها(١٣٩).

خلاصة القول؛ أن الدراسة توصلت إلى حقائق جديدة عن توقيت ظهور نظام العزابة في وارجلان؛ ومعلومات جديدة بالمثل عن جهود العزابيين في إشاعة الأمن والنظام داخل الواحة؛ فضلا عن إحكام الصلة بين إباضيتها ونظرائهم في بلاد المغرب والمشرق. يضاف إلى ذلك دورها المحمود في نشر الإسلام وحضارته في معظم أقاليم السودان الأوسط والغربي. وترجع هذه الجدة إلى توظيف الفقه الإباضي في قراءة المصادر التاريخية ؛ وهو ما أهمله كافة الدارسون السابقون.

Abstract

The system of celibacy when Ibadi and Argelan
In the era of the Fatimid Caliphate in Morocco
(٢٩٧ - ٣٦٢ AH)

By Salma Mahmoud Ismail

It is known that the celibacy system was invented by the lbadis in the Maghreb after the fall of the Rustamiya state at the hands of the Fatimid preacher Abu Abdullah Al-Shi'I in the ٢٩٦ Ah. In the following year, the Ismaili imam Ubayd Allah A-mahdi Became the first caliph of the Fatimid statein the city of Raqada. Following the fall of the Rustamiya state and the persecution of its lbadu=is, most of them migrated to the Nadusa Mountains, the island of Djerba, and the oasis of Argelan in the hollow of the Sahara. In the Nafusa Mountains; lbadites tride to revive the Rustamiya imamate; But their efforts failed as a result of the threats of the Fatimid Caliph Mahdi.On the island of Djerba – and its lbadis were based on the doctrine of Al-Nafathiyah – they succeeded in establishing the system of celibacy as an alternative to the system of the imamate; Likewise, the ibadis of Oasis and Argelan – most of whom were on the Wahhabi sect – established the single system, which was more organized and more influential than the singles of Jebel Nafusa and the island of Djerba

البيليوغرافيا والتوثيق

١) أنظر: على سبيل المثال المراجع الآتية:

Basset; H: Le Senctures de Djebel Nefousa, Paris, ١٩٣٥,
Despois; J: Le Djebel Nefousa, Paris, ١٩٣٥,
فاطمة حسن جابر: دور قبيلة نفوسة في تاريخ المغرب، كلية البنات – جامعة عين شمس – رسالة ماجستير سنة ٢٠٠٩، مخطوطة.

٢) أنظر: فرحات الجعبيري: نظام العزابة عند الإباضية في جربة، تونس، ١٩٧٥.

٣) أنظر: رشا محمد سالم: واحة وارجلان من الفتح العربي إلى نهاية عصر المرابطين، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة عين شمس، ١٩٩١، مخطوطة.
حيث لم تعرض للموضوع إلا في صفحتين: ٥٢، ٥٣.
محمد عبد العمر: الإباضية النكار في المغرب – من الفتح العربي إلى نهاية عصر المرابطين، رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة عين شمس، ٢٠٠٤، مخطوطة.
كتب عن عزابية وارجلان صفحتين حافلتين بالأخطاء، ص١٣٢، ١٣٣،
فاطمة بلهواري: حركات المعارضة في المغرب الإسلامي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة عين شمس، ١٩٩١، مخطوطة.
كتبت عن عزابة وارجلان سبعة سطور في هامش صفحة ٢١٤.

٤) إبن قتيبة: المعارف، ص٦٢٢، القاهرة ١٩٦٠.

٥) الرازي: إعتقادات فرق المسلمين، ص٤٢، القاهرة ١٩٣٨.

٦) الإسفرائيني: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، ص١٤٦، القاهرة ١٩٥٥.

٧) الشهرستاني: الملل والنحل، جـ١، ص١٢٢، القاهرة ١٩٥٦.

٨) الرازي: المصدر السابق، ص٥١.

٩) إبن حوقل: صورة الأرض، ص٦٨، ليدن ١٨٧٣،

Lewcki: Etude Ibadites Nord Africaine, P.٣٣, Warszaw, ١٩٥٥.

١٠) إبن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٦، ص١٢٠، ١٢١، القاهرة ١٩٥٧.

١١) Biquet: Histoire de L'Afrique Septentrionale, P.٤١, Paris, ١٩٢٥.

١٢) الشماخي: السير، جـ١، ص١٤٠، عمان ١٩٩٧.

١٣) نفسه، ص٢٩٠.
لذلك قرظته المصادر الإباضية وغير الإباضية، وأشاد بحكم الدارسون المحدثون؛ فوسموه بالمثالية، والتسامح مع الخصوم، والمخالفين له في المذهب.

أنظر: على سبيل المثال:
محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية، ص٧، الكويت ١٩٨٧،
عبد المجيد أبو الفتوح: الإباضية – دراسة في فكر المذهب ونشأته، ص٢٠٩، ٢١٠، القاهرة ١٩٩١.

١٤) الشماخي: المصدر السابق، ص١٤٦.

١٥) Lewcki: Melanges Berberes Ibadites, Revue des etudes Islamiques, P.٢٧٠, Paris, ١٩٣٦.

١٦) عن سياسة أفلح بن عبد الوهاب؛ أنظر:
محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص٢٧٣ وما بعدها، القاهرة ٢٠١٠.

١٧) النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، جـ٢، القاهرة، د.ت.

١٨) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص٢٧٥ وما بعدها.

١٩) إبن عذاري: البيان المغرب في أخبار المغرب، جـ١، ص٢٧٨، بيروت ١٩٥٠.

٢٠) نفسه، ص٢٨٣.

٢١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٣٧١، بيروت ١٩٧٩.

٢٢) أبو زكريا: السيرة وأخبار الأئمة، جـ١، ص١٨١، تونس ١٩٧٩.

٢٣) إبن سعيد: ورقات جزائرية، ص١٢٦، بيروت ٢٠٠٠.

٢٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص١٨٢، الجزائر ١٩٥٧.

٢٥) إبن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٧، ص٦١، بيروت ١٩٩٢.

٢٦) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص٥٠٨، القاهرة ٢٠٠٥.

٢٧) إبن خلدون: العبر، جـ٦، ص١٠٧.

٢٨) أبو زكريا: المصدر السابق، جـ١، ص١٨١.

٢٩) نفسه، جـ١، ص٦٤.

٣٠) نفسه، جـ١، ص١٥٩، ١٦٠.

٣١) إبن خلدون: العبر، جـ٥، ص٤٤.
ذلك أن يعقوب بن أفلح أشار على شيخ وارجلان بتحصين مدينة وارجلان بزيادة قراها الحصينة إلى نحو مائة قرية.
نفسه، جـ٦، ص١١٧.

٣٢) أبو زكريا: المصدر السابق، جـ١، ص١٦٤، ١٦٦.

٣٣) Lethiellieux; J: Ouargla cities de Orignes au debut de xxeme siècle, P.٤١, Paris, ١٩٨٤.

٣٤) لما بايع إباضية نفوسة شيخهم أبا يحيى زكريا الأرجاني بإمامة "الدفاع"؛ شكل حكومة من مشايخ المذهب، وجهز جيشا لضم طرابلس. لكنه هزم وقتل من رجاله الكثيرون. لم يكتف الفاطميون بذلك؛ بل أرسل الخليفة المهدي جيشا لغزو نفوسة عام ٣١٠هـ؛ دون جدوى لمناعة الجبل. كرر المحاولة في العام التالي، ونجح في قتل الأرجاني، وأرغم النفوسيين على دفع المغارم.

Lewcki: Etudes Ibadites, P.٥٠.

٣٥) في هذا الصدد ثمة نص أورده أبو زكريا جاء فيه: "تكلم أبو يزيد إلى العزابية في وارجلان، فقال له بعضهم وكانوا نكارا مثله – بعد إلقاء خطبته – ماذا تنتظر بثأر ابن فندين يا شيخ؟ فقال لهم: دعونا حتى نفرغ من نسج كسائنا، فإذا فرغنا منها وقعدنا؛ إشتغلنا في تنقية كسائنا".
أنظر: السيرة وأخبار الأئمة، جـ١، ص١٧١، ١٧٢.
ولما أحرز جيشه إنتصارات مدوية في كل معاركه إبان خلافة القائم ومن بعده المنصور، ولم يبق للفاطميين أي نفوذ إلا في عاصمتهم – المهدية – التي حاصرها؛ أعلن عن نكاريته، وأن قيام دولته الوشيكة هي دولة النكار. لذلك انفض عنه أصحاب المذاهب الإباضية الأخرى؛ فضلا عن أهل السنة؛ الأمر الذي أدى إلى هزيمته وقتله.
عن هذه الأحداث والوقائع؛ أنظر:
محمود إسماعيل: الخوارج، ص٣٧٩ وما بعدها.

٣٦) أبو زكريا: المصدر السابق، جـ١، ص١٧١.

٣٧) De goeje; M.J: Memories sur les Carmathes de Bahrin et les Fatimids, P.١٤٣, London, ١٩٠٩.

٣٨) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص٤٠٥.

٣٩) أبو زكريا: المصدر السابق، ص٢١٠.

٤٠) فرحات الجعبيري: البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، جـ١، ص١١٢، الجزائر ١٩٨٧.

٤١) إبن حيون: المجالس والمسايرات، ص٦٩، ٩٤، تونس ١٩٧٨.

٤٢) أبو زكريا الجناوني: كتاب الوضع – مختصر في أصول الفقه، ص٣٢، ٣٣، القاهرة، د.ت.

٤٣) عبد المجيد أبو الفتوح: المرجع السابق، ص١٩٢، ١٩٣.

٤٤) نفسه، ص١٩٩.

٤٥) الشماخي: المصدر السابق، جـ١، ص١٠٤، ١٠٥.

٤٦) السيرة وأخبار الآئمة، ص٢٢٣،
الشماخي: المصدر السابق، جـ١، ص٨٢.

٤٧) فرحات الجعبيري: المرجع السابق، جـ١، ص١٨٦، جـ٢، ص٧٦٣.

٤٨) نفسه، جـ٢، ص٧٧١.

٤٩) الربيع بن حبيب: "الجامع الصحيح" الذي اهتم بأحاديث الرسول (ص) ورتبها حسب الموضوعات؛ دون أدنى تعليق من جانبه، وكانت الأحاديث الخاصة بالفتنة مرجعية فقهاء وارجلان، ومن ثم طبقها العزابيون بصرامة.
أنظر: أحاديث الفتنة، ص٢٦.

٥٠) فاطمة بلهواري: المرجع السابق، ص٢١٤.

٥١) محمد عبد العمر: المرجع السابق، ص١٣٢.

٥٢) نفسه، ص١٣٣.

٥٣) رشا محمد سالم: المرجع السابق، ص٥١.

٥٤) نفس المرجع والصفحة.

٥٥) علي يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ص١٠٧، القاهرة ١٩٧٩.

٥٦) الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، جـ١، ص٤، البليدة ١٩٧٤.

٥٧) الشماخي: السير، جـ٢، ص٣٥٩.

٥٨) نفسه، ص٣٦٢،
بكير بن سعيد أعوش: وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، ص٩٧، غرداية ١٩٨٨.

٥٩) محمود إسماعيل: الخوارج، ص٢٤٤.

٦٠) اليعقوبي: البلدان، ص١٤٩، ليدن ١٨٩١.

٦١) الدرجيني: المصدر السابق، ص٤،
بكير بن سعيد أعوش: المرجع السابق، ص١٠٥.

٦٢) علي يحيى معمر: المرجع السابق، ص٩٨.

٦٣) الشماخي: المصدر السابق، جـ٢، ص٦٢.

٦٤) الدرجيني: المصدر السابق، ص١٤٣.

٦٥) الشماخي: المصدر السابق، ص٦٧.

٦٦) الدرجيني: المصدر السابق، ص١٧١.

٦٧) الشماخي: المصدر السابق، ص٦٢.

٦٨) نفسه، ص٦٣.

٦٩) نفسه، ص٦٥.

٧٠) نفسه، ص٦٧،
بكير سعيد أعوش: المرجع السابق، ص١٠٥، ١٠٦.

٧١) الدرجيني: المصدر السابق، ص١٧٧.

٧٢) كلمة من لغة البربر؛ معناها حفظة القرآن من الصغار؛ أشبه ما تكون بالكتاتيب حاليا.

٧٣) الشماخي: المصدر السابق، ص٦٥.

٧٤) نفسه، ص٦٦، ٦٧.

٧٥) الدرجيني: المصدر السابق، ص١٤٤.

٧٦) رشا محمد سالم: المرجع السابق، ص٥١.

٧٧) فاطمة بلهواري: المرجع السابق، ص٢١٤.

٧٨) أنظر: جناو بن فتى وعبد القهار بن خلف. أجوبة علماء فزان، ص٦٠، قسنطينة ١٩٩١.

٧٩) نفسه، ص٧٩، ٨٠.

٨٠) الشماخي: المصدر السابق، جـ٢، ص٦٢، ٦٣.

٨١) نفسه، ص٦٧.

٨٢) السيابي: عمان عبر التاريخ، جـ٢، ص١٠، ١١، مسقط ١٩٨٦.

٨٣) نفسه، ص١٠٩.

٨٤) محمود إسماعيل: دور التنظيم السري الإباضي في التواصل بين إباضية المشرق والمغرب – بحث في كتاب: دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي، ص١٣٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٩٤.

٨٥) الشماخي: المصدر السابق، جـ٢، ص١٢٨.

٨٦) أبو زكريا: المصدر السابق، جـ٢، ص٣١٢.

٨٧) نفسه، ص٣٣٦.

٨٨) عن تلك المشكلات والصراعات، أنظر:
الدرجيني: المصدر السابق، ص٣٤٨ وما بعدها،
أبو زكريا: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٥٩ وما بعدها.

٨٩) نفسه، ص٢٧٤.

٩٠) الشماخي: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٣٣.

٩١) مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص٢٢٤، الإسكندرية ١٩٥٨.

٩٢) الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس، جـ١، ص٢٤٧، بيروت ١٩٨١.

٩٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، جـ٢، ص٦٠٠، بيروت ١٩٨٤.

٩٤) البغطوري: سيرة أهل نفوسة، ورقة، ١٦، مخطوط في مكتبة د. محمود إسماعيل.

٩٥) الشماخي: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٥٦.

٩٦) نفسه، ص٣٥٤.

٩٧) إبن خلدون: العبر، جـ١، ص٥٨.

٩٨) أنظر: الدرجيني: المصدر السابق، جـ٢، ص٤١٠،
الشماخي: المصدر السابق، جـ٢، ص٧١، ٧٢؛
حيث تحدث عن قطعان الشيخ محمد بن بكر، وتعرضها للسرقات أثناء غيابه عن وارجلان لزيارة الإباضية في جبل نفوسة وبلاد الجريد.

٩٩) أنظر: عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم: كتاب مسائل نفوسة، ص٧٥ وما بعدها ، غرداية ١٩٩١.

١٠٠) الدرجيني: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٠٣.

١٠١) الربيع بن حبيب: المصدر السابق، ص١٥٠ــ ١٥٤.

١٠٢) نفسه، ص١٥١.

١٠٣) محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص٢١٢.

١٠٤) نفسه، ص٢١٣.

١٠٥) أنظر: كتاب الإيضاح: سالف الذكر، ص١٥٠، ١٥١، ١٥٢؛ على سبيل المثال.

١٠٦) ذكر الشماخي أن أبا محمد عبد الله بن مطكود كان تاجرا ورعا مولعا بعمل الخير؛ حتى أنه "كان يترك مفتاح مخزنه للعزابة والطلبة... من احتاج منهم إلى شيء أخذه". كذلك كان "حال التاجر أبي أيوب بن كلابة؛ إذا جمع زرعه أطلق يده للنفقة.".
أنظر: كتاب السير، جـ٢، ص٢٢٧.

١٠٧) الوسياني: سير أبي الربيع الوسياني، ورقة ٩٤، مخطوط بمكتبة د. محمود إسماعيل.

١٠٨) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص٨٩، القاهرة، د.ت.

١٠٩) Lethiellieux: Op.Cit. P.٣٦.

١١٠) الدرجيني: المصدر السابق، جـ٢، ص١٨٢.

١١١) البغطوري: المصدر السابق، ورقة ٢٣.

١١٢) يرجع ذلك إلى تحريض بعض فقهاء الإباضية أتباعهم الوهبية بألا يأمنوا شر النكار؛ حيث قال أحدهم: "... إني سمعت أن جماعة من النكار طلعوا قبلكم. فإياكم أن يردوا أرضكم ولو للضيافة؛ فإن القوم أخدع الأمة".
أنظر: الدرجيني: المصدر السابق، جـ٢، ص٤٢٠.

١١٣) نفسه، ص٤٧٢.

١١٤) محمود إسماعيل: مغربيات، ص١٣٤، فاس ١٩٧٧.

١١٥) أبو زكريا: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٧٥.

١١٦) الوسياني: المصدر السابق، ورقة ٢٤٤.

١١٧) نفسه، ورقة ٢٤٦.

١١٨) الربيع بن حبيب: المصدر السابق، ص١٥٧ وما بعدها، باب الأحكام، ص١٦٠ وما بعدها عن باب الحدود، ١٨٧ وما بعدها عن باب الآداب.

١١٩) البغطوري: المصدر السابق، ورقة ٤٤.

١٢٠) الشماخي: المصدر السابق، جـ٢، ص٥٩.

١٢١) إبن خلدون: المقدمة، ص٢١٨.

١٢٢) الشماخي: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٨٨.

١٢٣) نفسه، ص٢٩٤.

١٢٤) نفسه، ص٥٩.

١٢٥) فرحات الجعبيري: المرجع السابق، جـ١، ص١٨٣، ١٨٣.

١٢٦) أنظر: أبو زكريا: المصدر السابق، جـ١، ص١٦٤.

١٢٧) عن مزيد من المعلومات بصدد النهضة العلمية في وارجلان؛
أنظر: رشا محمد سالم: المرجع السابق، من صفحة ١١٦ إلى صفحة ١٤٠.

١٢٨) اليعقوبي: تاريخه، جـ١، ص١٥٦، النجف الأشرف، ١٣٥٨هـ.

١٢٩) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص١٢، القاهرة ١٩١٥.

١٣٠) Daridson; B: Les Africains, Introduction a l'histoire d'une culture, P.٢٠١, Paris, ١٩٧١.

١٣١) Chailley; M: Histoire de l'Afrique Occidentale, P.٣٢, Paris, ١٩٦٨.

١٣٢) الحسن الوزان: المصدر السابق، جـ٢، ص١٥٩، ١٦٠.

١٣٣) جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، الترجمة العربية، ص٢٠٢، تونس ٢٠١١.

١٣٤) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص٢١٨، القاهرة ١٩٦٣.

١٣٥) علي يحيى معمر: الإباضية بين الفرق، ص١٠٢، عمان ١٩٢١.

١٣٦) الحسن الوزان: المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٧.

١٣٧) البكري: المصدر السابق، ص١٧٥.

١٣٨) النفوسي: المصدر السابق، ص٨، ٩.
البكري: المصدر السابق، ص١٧٦.